

الباب الأول

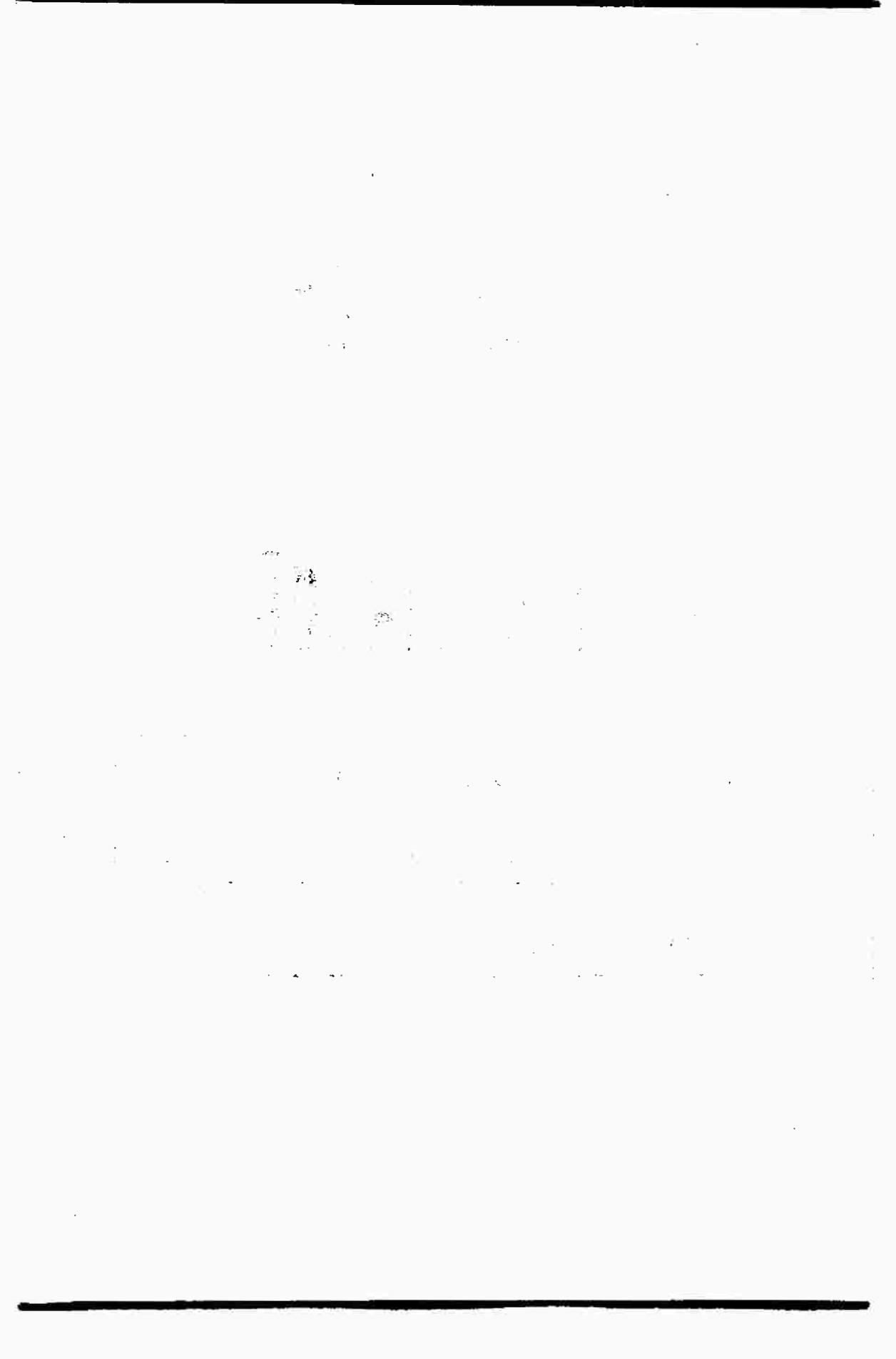
صَلَّى
عَلَيْكَ
وَسَلَّمَ

الصَّابِر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾

[سورة الطور: الآية ٤٨].



الفصل الأول

للبيت رب يحميه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾
[سورة الفيل - الآيات ١: ٥]

١

هذا يوم غريب من أيام مكة..

وعلى رغم ما اعتادت عليه من شدة الحر، فإنه لم يكن في أيامها السابقة يوم أشد حرا من هذا اليوم؛ فمذ الشروق والشمس قاسية أشد ما تكون القسوة، وكلما مر الوقت ازدادت أشعتها ضراوة، حتى صارت مع حلول الظهيرة سهاما مسومة تخترق كل ما تقع عليه من شيء، فتعمل فيه الفساد والدمار، وأصبح أهل مكة يهرولون ملتجئين إلى الظل حتى لو كان تحت شاة أو بعير. ووراء سلسلة الجبال التي تحيط مكة كالسوار، تناثرت بحيرات الماء فوق الرمال، وقد اشتد لعانها حتى إنها لتتخدع أعتى العارفين بظبيعة الصحراء، فهذا الانعكاس اللامع لوهج الشمس يؤكد في حسم أن ما تراه العيون ماء وليس سرايا.

في هذا اللظى توقف شعبان أسود هائل فوق الرمال ينتفض يمنا ويسرة، بعد أن أرهقه الزحف، في محاولة لالتقاط نشقة هواء رطبة، أو خالية من ذرات التراب التي يثيرها أثناء حركته؛ ولم يدم توقفه طويلا، فالهدف قد أصبح على مرمى البصر، فسرعان ما عاد إلى زحفه في إصرار، مخلقا وراءه مجرى عميقا لنهر بلا ماء، مثيرا لزوابع من الغبار تصاعدت إلى عنان السماء، وتخطت ذرا الجبال الشامخات، لتزيد الصورة جهامة على جهامة.

تصايح أهل مكة في هلع حين رأوا سحابة الغبار تجتاز قمم الجبال:

- يا قوم لقد أصبح أبرهة الأشرم وجيشه، على مرمى القوس من أبواب مكة.

٢

في دار الندوة جلس كبار القوم يتشاورون في أمر هذا الشر الوافد، أما الجمهرة من العامة، فقد وقفت تتربق في لهفة صدور قرار الحرب، فهم لم يعتادوا الخنوع أو الخوف مهما كان شأن عدوهم.

وبينما الجمع في حمية النقاش، إذا بغريب يبرز لهم معلنا أنه رسول أبرهة إليهم، صمت الحاضرون، وران على الجمع سكون مترقب تقطعه مهمات غاضبة، بينما استمر الغريب يشق طريقه غير عابئ بالوكزات، ولا يرذاذ البصاق الذى تنثر حوله فى تحد، إلى أن دخل دار الندوة ثم صاح:

- من فيكم سيد القوم وحكيمهم؟! .

أشاروا كلهم دون تردد إلى رجل مهيب الطلعة، وضاء الوجه، يتوسط مجلسهم وقالوا:

- هذا عبد المطلب بن هاشم صاحب الكلمة فينا.

اتجه الغريب إلى عبد المطلب، ثم انحنى محييا، وهو يقول:

- إن الملك أرسلنى إليك لأبلغ قومك بأنه ليس فى حاجة إلى حربكم، ولا سفك دمائكم، ولكنه أتى قاصدا هدم الكعبة وبعدها يخلى عنكم، ويرجع إلى ملكه، إن أنتم لم تعلنوا حربه، ولم تعترضوا سبيل جنده.

زمجرت الجموع مستنكرة غاضبة، فكيف يطالبهم أبرهة بأن يسالموه، ويقفوا متفرجين عليه وهو يهدم البيت الحرام رمز عزتهم، ومصدر فخارهم بين القبائل، وموطن آلهتهم التى يعبدون؟! .
ولكن إشارة من يد عبد المطلب أسكتتهم، ثم أشار على رسول أبرهة بأن يستريح بدار الضيافة، إلى أن يتشاور مع قومه فى الأمر.

وما إن اختفى الغريب، حتى قام عبد المطلب فى قومه خطيبا، قائلا والصدق يجعل كلماته كالسهام، تنغرس فى هدفها فلا تتادره:

- ورب البيت إنا لآيسون من حرب أبرهة الأشرم، فلقد أتانا فى جند يزيدون عنا عددا وعدة ولقد استقدم معه فيلا إن وطئت قدمه رجالا أو إبلا صرخته وحطمت عظامه، ولقد سبقنا واستنفرنا نفر فرسان قومه لحربه حين مر بديارهم، لكن أبرهة هزمهم، وغلب أبطالهم، ثم قاتله نغيل بن حبيب الخثعمى وقومه فدمر ديارهم، وسبى نساءهم، ويتم عيالهم، ونهب أموالهم و أقواتهم، وإنى أرى أن نساله مادام قد بدأنا هو بالسلام، أما البيت فورب البيت ما قصده ظالم بانتهاك إلا وقصمه الله، هذا ما أرى، فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟

لم يكن هناك رأى يرى بعد ما قال عبد المطلب، ولهذا أجابوه والمرارة تجعل الكلمات تتعثر فى حلوقهم، وتخرج على شفاههم مرتعدة بالهزيمة والانكسار:

- افعل ما ترى، ونحن معك.

أمر عبد المطلب بإحضار رسول أبرهة، وحين مثل بين يديه قال له:

- أبلغ مليكك أننا سنمتنع عن قتاله مادام حافظا جنده على حرمة ديارنا.

استمع الرسول إلى قرار عبد المطلب وعيناه تلمعان بالانتصار، لكنه لم يغادرهم منصرفا، بل قال:

- لقد أمرنى الملك أن أصحب سيد القوم إليه إذا ما أجيتم مطلبه.

أجابه عبد المطلب دون تردد.

- وإنى ناهب معك إليه فلي عنده مسألة.

كانت استجابة عبد المطلب لدعوة أبرهة، مفاجأة زلزلت وجدان القوم، فإن ما تناقلته القبائل من روايات عن أبرهة يؤكد خيانتته للعمود، ونقضه للمواثيق: فلماذا لا يكون طلبه مكراماً بهم، ليسلبهم القائد فتسهل عليه السيطرة عليهم واجتياح ديارهم؟!.

وكما عرفوا عن عدوهم مكره وخداعه، فهم يعرفون صلابة عبد المطلب وجسارته، وإصراره على تنفيذ ما عاهد عليه، منذ قاتلهم جميعاً لكي يحفر بئر زمزم وفاء للرؤيا التي رأى، وللهااتف الذي هتف به أن احفر زمزم التي طمرت فيتدفق منها الماء سقاية لحجيج بيت الله.

كانوا يقاتلونه ليمنموه خوفاً من غضب أصنامهم التي يعبدون، فلقد كان يحقر تحت أقدامها، وضربات معموله تهز الأوثان هنا حتى لتوشك أن تنكفي، لكنه أصر ودافعهم وضاربهم، وهو ليس له من الأبناء غير ابن واحد هو الحارث، ولذا فلقد صاح فيهم زاجراً:

- أولو كان لي من الأبناء كثرة، أو كنتم تقاتلونني فيما أنا صانع؟... والله إنى لناذر أن أقدم للأنفة أحد أبنائي قربانا، لو رزقت بعشرة ذكور يحمونني، ويدفعون عني أذى سفهاء مكة.

وحين تسامعت قريش بما قال عبد المطلب، انفضوا عنه لا يقاتلونه، وقد أخذهم الحزى كل مأخذ، وتقاسموا ألا يقاتلوا عبد المطلب أبداً.

وحفرت زمزم، وتفجر ماؤها، وتأكدت قريش من رجاحة عقل عبد المطلب وشفافية روحه، ومنذ ذلك الحادث وهم لا ينازعونه في رأى، ولا يخالفونه في مشورة.

إذن فليكلوا أمرهم لرب البيت، وليلجئوا إلى أصنامهم يسألونها العون ليعود إليهم عبد المطلب سالماً، وإلا فأى عار ذلك الذى سيلاحقهم لو غدر به الحبشى، وهم جلوس فى ديارهم لم يحملوا سيفاً و لم يرموا نبلاً؟!.

٣

انطلق عبد المطلب على فرسه الأشهب مع رسول أبرهة حتى وصلا إلى خيمة الملك، وقد عسكر حولها الجند يسمرون وقد تحوطوا النار يظهون.

كان الوقت مساءً، والهواء ثقيلاً خائفاً، والسماء سوداء مكفهرة، حالها كحال الشمس بالنهار: غريب.. غريب، لم تعتده عينا عبد المطلب، وها هي ذى النجوم خابية أنوارها، وقد دنت من الأرض وتدلّت، حتى لتخال يدك واصلة إليها ممسكة بها.

قال عبد المطلب لنفسه: ورب البيت إن هذه السماء لتبيتن لأمر جلال.

وقال رسول أبرهة:

- سأستأذن لك الملك.

صاح أبرهة وثيرة النصر تلون صوته بالكبير:

- أدخلوا الهاشمي صاحب زمزم ومطعم الحجيج.

وحين أطل وجهه عبد المطلب من باب الخيمة، انتابت أبرهة خشية عظيمة لتلك المهابة التي طالعتها، وذاك النور الذي يضيء الوجه بالطأنينة، فلا قلق يبدو تأثرا من رؤية لذاك الحشد الحاشد من الجند، ولا انبهار بهذا الترف واللبذخ الذي يملأ الخيمة، بل هناك سكينه لم يشهد مثلها من قبل، حتى في وجوه القسس والرهبان.

نهض أبرهة مضطربا لا يدري ما هو فاعل؟!..

هل تراه سيدعو الهاشمي لارتقاء العرش والجلوس إلى جواره، فيقال: لقد جلس القرشي على عرش اليمن، وآد له من غضبه سيده إمبراطور الحيشة حين يسمع بهذا، وهو باليقين سامعه، فليسيده في كل ركن أذن تسمع، وفي كل مخدع عين ترى.

أو هو يجلسه تحت قدميه كما يجلس غيره؟.

لا.. لا.. محال أن يفعل هذا بعبد المطلب.

هكذا أخذ أبرهة يردد لنفسه رافضا الفكرة، على رغم كونه يتمنى أن يفعل هذا إنزالا لن دنس رجل من قومه حرمة كنيسته؛ والفرصة سانحة، وهو مالك للأمر، لكنه غير مستطيع.

كيف؟!.

لا يدري.

فها هو ذا يجلس على الأرض، بينما هو يريد أن يكون جالسا هناك بأعلى، ثم ها هو ذا يشير إلى عبد المطلب ليقرب ويجلس إلى جانبه، بينما هو يريد أن يبعده، ولا يدنيه.

أسرع المترجم يقف خلفهما، قال أبرهة:

- سل الهاشمي بماذا يأمر فيطاع؟.

ذهل المترجم، ظن أن سمعه قد خأنه، فلم يقل مثلما قال مليكه، بل قال لعبد المطلب:

- مولاي يسأل إن كانت لك حاجة عنده فيجيبك إليها.

قال عبد المطلب:

- قل لولائك إن جنده قد نالوا مائتين من إبلى بالأمس، فليردها علي.

تغير لون أبرهة، وبدت الدهشة على وجهه الذي ازداد سوادا، حين سمع من المترجم ما قاله عبد المطلب، سكت قليلا ثم قال:

- كنت قد أكبرتك حين رأيتك، ووطنتك ستتوسل إلى ألا أهدم البيت، فإذا أنت تطلب أن أرد

إليك مائتين من الإبل!!.

أجابه عبد المطلب في هدوء:

- لأنني أنا رب الإبل، أما البيت فله رب يحميه.

تزلزل كيان أبرهة: ما هذا الذى يسمع، ما باك هذا الأعرابي لايزال يصيبني بالرهبة والخوف، ويغز عني بسكينته ورباطة جأشه، إنه يقابل إقدامى على هدم البيت بهدوء، وأنا من أصابه الهياج واجتاحه الغضب، وجيش الجيوش، وقطع الفيافى والفقار: وواصل الليل بالنهار، لمجرد أنى سمعت بأن أعرابيا قضى حاجته فى كنيستى التى بنيتها باليمن تقريبا لمولاي إمبراطور الحبشة. وطلبا لرضاه. وإعلاء لشأن الصليب، وإبهارا للعرب حتى ينفضوا عن الحج إلى الكعبة، ليحجوا إلى كنيستى التى بنيتها سامقة تكاد تناطح السحاب حين علمت بأن الكعبة التى يحجون إليها لا يرتفع بناؤها عن بيوتهم و خيامهم إلا أشبارا، وزينت جدرانها باللؤلؤ والمرجان، وجعلت سقفها من ماء الذهب والفضة، وصلبانها من الذهب والياقوت، بينما هم يحيطون كعبتهم بتمائيل يعبدونها يصنعونها من الحجارة والطين: بل ومن الرطب والعسل - وعلى رغم هذا جميعه - لم يهجروا كعبتهم، ولم يغيروا عاداتهم، بل اجترءوا على كنيستى استخفافا وتحقيرا، فلم يكتفوا بهجرها، بل لقد فعل أحدهم فعلته التى فعل، فلم يعد أمامى إلا حد السيف أجتت به رمزهم ومزارهم، ثم ها هو ذا رئيسهم لا يطلب منى غير بضع من النوق؛ فيالهم من قوم أمرهم عجب من عجب!!

طال انتظار المترجم لرد سيده على سؤال عبد المطلب، فأعاد السؤال على مولاه؛ انتبه أبرهة من استغراقه فى دوامة الأفكار، قال فى نبرة حاول أن يغلفها بالغرسة:

- ردوا إليه إبله.

ثم استطرد فى غيظ وضيق:

- أكد عليه أيها الترجمان، أننى مع شروق الشمس آت إلى قريتهم، ومدمر بيتهم بضربة واحدة من قدم فيل مولاي الإمبراطور؛ وعليهم أن يلزموا دورهم مبتعدين عن طريق جندى.

ثم نهض مستديرا يصعد سلم العرش، صارخا فى حراسه:

- أروا الأعرابي الفيل.

خرج عبد المطلب إلى معسكر الجند، فى همة من أجيبت حاجته، ثم هو يرغب فى مشاهدة هذا الفيل الذى تتناقل عنه الأعراب قصصا تفوق الخيال، كما وأنه لم ير فى حياته فيلا، فحين قال ما قال لقومه كان ناقلا عمًا جاءه من أخبار، وها هو ذا قد قدر له أن يرى، وبها هول ما يرى: فكأنما هو جبل، وحين تحرك، مادت الأرض تحت قدميه، وحين صرخ أصم أذنيه.

غادر عبد المطلب مكان الفيل عائدا إلى قومه، يسوق إبله، وقد أصابه هم عظيم: فماذا هو مستطيع أمام هذا البلاء؟!.

أطلق عبد المطلب الإبل فى ساحة الكعبة، وأعلن أنه واهبها لله إذا نجى البيت من مكيدة الحبشى، ثم تعلق بحلقة باب الكعبة، وراح يدعو وقد انسابت دموعه تضحخ لحيته، وحوله جموع من القرشيين يرددون وراءه ويكفون لبكائه:

- يا رب لا نرجو لهم سواك، فامنعمهم يا رب أن يخربوا قراك: فعدو البيت يا رب من عاداك.

وظل عبد المطلب على حاله، حتى أشفق عليه من حوله، وتوسلوا إليه أن يرحم شيبته، ويكف عن تعلقه بالباب وعن البكاء، فاستجاب لهم، واتجه إلى بطون قريش ينصحهم بالفرار إلى الجبال.

٤

أوقدت المشاعل وتصايح القوم، وجرت الأمهات لهفى على أطفالهن يوقظونهم ويحملونهم خارج الدور، بينما أخذ الرجال يسوقون الدواب وقد حملوها بكل غال ونفيس متجهين إلى الجبال يتسلقونها، ويتدافعون إلى شعابها.

كان المنظر حزينا يدمى القلوب..

قوم مقهورون يهجرون ديارهم وسط الظلمات، ويلجون مسارب الجبال، وهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم فيها، وما أكثر ما تخفيه بين سرايبها وصخورها من أهوال ومخاطر، فهي مرتع للحيوانات المفترسة، وللزواحف الخطرة من ثعابين وحيات، بينما هم يرون بالكاد ما هو تحت أقدامهم، وقد تصاعدت أنات المرضى والمسنين، ونداءات الأمهات على صغارهن الذين علا بكأؤهم من شدة الفرع. وحين اطمأن الرجال على أسرهم، التفت أبناء عبد المطلب يبحثون عن أبيهم، فلم يجدوه، فتدافعوا ومعهم أقوام منحدرين إلى حيث يوقنون بوجوده.

فى الكعبة كان واقفا يبكي، وقد رفع أكف الضراعة إلى السماء، اقتربوا منه، وقالوا فى رجاء:
- هلم معنا.

رد عليهم فى حسم:

- لن أغادر الكعبة، ساقى منتظرا قضاء ربي، ولا أقطع الأمل فى رحمته.
توسلوا إليه قائلين:

- من أجل أبنائك تعال معنا إلى الجبال، فمكة لن تكون آمنة، فأبرهة كاره لقرينتنا، وجنده شرهون للدماء، وفيه يصبح مهووسا ملووسا، إذا ما غرسوا الحراب فى جلده، فهو يطيح بقدميه وخرطومه يمنا ويسرة، يدمر كل ما يقع فى طريقه، حتى وإن دمر نفسه.

أجابهم لينهى كل حوار:

- أبنائى أبنائكم، خذوهم على ما تأخذون عليه عيالكم.

ثم استدار مواجهها الكعبة، وراح يجأر بالدعاء لله، لا يأبه بشيء.

انصرف الرجال عائدين إلى أسرهم، وهم فى حال من عدم الرضا لانصرافهم عنه، فهم لم يعتادوا من أنفسهم مثل هذا التصرف عند نشوب الشدائد، واستفحال الأزمات، فهي تجعلهم يزدادون قربا وتماسكا وتوحدا، لكن ماذا تراهم فاعلين، والوقت يمر ونذير الشؤم آت مع أول خيوط النهار؟!.

كان «عبد الله» هو آخر من تبعهم، فترك ساحة الكعبة، وإن ظل قلبه معلقا بأبيه فهو أصغر الأبناء: قريب إلى نفسه، محبب إليه؛ وبنفس درجة حب الأب؛ كان مكنون القلب عند الابن، ولذلك كان

«عبد الله» منقبض الفؤاد، كسيف البال، فهو لا يستطيع أن يبقى مع أبيه الحبيب كما يتمنى، لأنه لن يسمح له بالبقاء، بل هو سيزجره ويصرفه، كما أنه لو ترك زوجته آمنة وبقي، فمن يحق لها الأمن وهي حامل في ابنهما الأول، فلو سبى أبرمة وجنده أى امرأة لصارت أمة يبيعونها ويبيعون عيالها، والموت أهون من أن يحدث هذا لزوجها، أو لابنه الذى لم يره بعد، ويشتاق لرؤياه غاية الاشتياق. وتتعثر خطوات عبد الله فى صخور الجبل فتدمى قدماءه، ففكره الشارد لا يجعله منبها للأخطار المحيطة به، ويصل عبد الله إلى حيث عسكر القوم؛ وتتلقفه آمنة فى لهفة بعد أن أقلقها تخلفه عن أقرانه، وتراه شاردا فتسأله:

– فيم تفكر يا أبا الفتى؟! .

فيجيبيها:

– ورب البيت، إن الموت لأهون على مما طاف بفكرى.

وتدرك آمنة بفطرتها أنه كان قلقا عليها، وعلى الجنين الذى يتحرك فى أحشائها وتغمرها حركته بسعادة وطمأنينة، فتحنى عليه هامة:

– والله يا عبد الله إننا لفى حمى الله، ولقد بشرت فى منامى بأن ابننا سيكون له شأن عظيم، وسوف يتفجر لولده النور حتى يعم قصور بصرى بالشام، فأبشر يا ابن عم، ولا تقلق عليه، فإن الله حافظه من كل سوء.

ويضىء وجه عبد الله بالبشر، فقد نزل كلام آمنة على قلبه بردا وسلاما.

٥

انصرم الليل..

ومكة هامة كسابق عهدا منذ هجرها أهلها.

فى حب عميق، جلس الإنسان الوحيد الذى بقى بمكة، داعم العينين ينظر إلى ذلك البناء الحبيب الذى تقاثل العرب من أجل أن يكون لهم شرف خدمته وخدمة زواره.

مبنى مربع بسيط لا زخارف فيه ولا زينة، من يراه بداية يعجب من أمر ذلك الحب والتعلق الذى يربط قلوب العرب به، ولكن من يراه مرارا، سيكون أكثر منهم تعلقا وتشوقا لزيارته، والطواف به: مهلا ملييا وداعيا رب البيت، متوسلا إليه بما يريد قضاءه.

لقد ظل هذا حال البيت منذ كانت الحياة بخلق آدم عليه السلام، ويقال إن البيت كان موجودا أيضا قبل أن يخلق الله آدم من طين، وأن البيت كان ياقوتة حمراء، وكانت الملائكة – وما زالت – تطوف حوله مسحة لله ليل نهار، فى خشوع العابدين العارفين بقدر الخالق.

وحين رفعت الياقوتة من الأرض، بقيت قواعد البيت فأعاد جد العرب الأكبر إبراهيم عليه السلام بناءه من حجارة الجبال، وعاونته ابنه إسماعيل، الذى فجر له الله ماء زمزم حين كان طفلا، رحمة به

وبألمه ، حين تركهما إبراهيم بصحراء مكة ، هذه البئر التي رأيت في منامك أنك تقوم بإعادة حفرها ، بعد أن طمرتها السنوات ، وعندما قصصت رؤياك على أهل مكة ، سخرؤا منك . واستهزؤوا بك ، ولكنك أصررت على حفرها تنفيذا للأمر الذى أمرت به فى منامك . وحين تكشف ما طمر بها من دروع وذهب أرادوا أن يشاركوك الحفر ، ولكنك رفضت أن ينال ذلك الشرف أحد غيرك ، ورحمت تحفر . ولا يصدهم ، ولا يردهم عنك سوى ابنك الحارث ، هنا أقسمت : لئن رزقك الله بعشرة من الأبناء ليزودوا عنك ، ويردوا أذى قريش فإنك ذابح أحدهم قربانا لله .
ومرت السنون ..

ومن الله عليك بالأبناء العشرة ..

وكان عليك الوفاء بالندر ..

وليكون العدل هو الشرعة ، قبلت الاحتكام إلى هبل ..

وضربت القداح وبها أسماء أبنائك العشرة ..

وحتى يكون الابتلاء شديدا ، خرجت القداح على اسم : عبد الله .

وكان الوفاء صعبا ..

وكان الحنث أصعب ..

وما أشد الشبه بما حدث لجذك إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، وما هو حادث لك يا عبد المطلب ، حين أخذت عبد الله بيد ، وبالييد الأخرى السكين . وما أنت ذا تتجه بعبد الله إلى حيث تقدم قريش قرايينها و تذيبها تحت قدمي : إساف ونائلة . وأبناؤك حولك سيكون .

وانتشر الخير بسرعة انتشار الرمال حين تحركها الزوابع بين من كانوا بالكعبة ، ثم سرى بسرعة الريح فى أنحاء مكة ، فالتف من حولك الناس ، وتحوطوا بك ، فأصبحت تشق طريقك بصعوبة ، وأبناؤك لا يزودون عنك ، ولا يقرونك على ما تريد فعله بأخيهم .

وحين تمكنت من الوصول إلى أسفل الصنمين ، وأنخت عبد الله ، ووضعته خده فوق الثرى ، وارتفعت السكين يلعب نصلها تحت أشعة الشمس الحارقة ، إذا بابنك الحارث يلتاث ويجأ بالصراخ ، ثم يجذب أخاه من تحت ساقك ، فيخمش التراب خده ويسيل الدم على وجه عبد الله الطيب ، ويذوب قلبك أما وحرنا ..

ألا يرحمونك من محاولة الذبح : فمن أدراهم أنك لست الذابح ، ولكنك أنت الذبيح؟! .

وعلى رغم آلام نفسك الشديدة ، تصر على معاودة الإمساك بعبد الله مرة أخرى لتذبحه ؛ وفى هذه المرة لم يكن أولادك فقط هم مانعك ، ولكن قريشا كلها أصبحت مانعتك حتى لا تستن سنة تروع مكة ومن فيها ، فيباح للرجل ذبح أولاده الذكور قرايين .

ألا يكفيك ويكفيهم أنكم تندون البنات ، وتدفنوهن أحياء خشية العار والفاقة؟! .

وتنادى الجميع بالاحتكام إلى كاهنة من «طيبة» ، تستطيع أن تفتى بالرأى فى مثل هذه المواقف ، وقد كان ، وزحفت الجموع إلى حافة الجبل حيث تقيم الكاهنة ، وحين عرض الأمر عليها ، قالت :

- كم فداء الرجل فيكم؟.

قالوا:

- عشرة من الإبل.

قالت:

- إذا فاحتكموا إلى القداح، وزيدوا الفداء حتى تخرج الأسهم على الإبل.

وتنادى القرشيون:

- الفداء.. الفداء..

وبدأ الفداء بعشرة من الإبل، وخرجت القداح على عبد الله، وأخذ رقم الفداء يكبر ويكبر، حتى وصل إلى مائة من الإبل، عندئذ خرجت القداح على الإبل، فذبحت جميعها في ساحة الكعبة، وتركت لمن يريد أن يأكل من: إنسان، أو وحش وطيور.
كل هذه الأحداث جرت بهذا المكان..

وكل ما مضى من العمر، قضيت أكثره بهذا الركن من الكعبة، ففى خدمة البيت، وخدمة زوار البيت، تقدم الطعام والشراب والكساء، لمن يريد، فإن إكرام ضيوف الرحمن واجب، بل هو شرف لا يظاوله شرف آخر.

أما هذا الحبشى الذى رام هدم البيت غيرة وحقدا، ليحج العرب إلى كنيسته التى بناها بتسخير الناس، وجبرهم على البناء تحت نار البطش والخوف، فلقد بناها تفاخرا بنفسه، وتقربا إليك؛ فهو بناها لإمبراطوره، ولم يبينها لله؛ أما هذا البيت فمنذ وجد وهو لله.

لقد دعا جدنا الأكبر إبراهيم، وهو يرفع القواعد من البيت: أن رب اجعل هذا البلد آمنا، وارزق أهله من الثمرات، واجعل يا رب أفئدة من الناس تهوى قلوبها وتحن وتثن شوقا وحنينا إليه، فتسعى ملهوفة لزيارته، تبحث حوله عن التطهر والطمأنينة.
وحقق الله الدعاء والرجاء..

وتعلقت القلوب بالبيت، وبقيت على تعلقها لا تحيد، ولم تصرفيم الطواغيت أو الأصنام عنه: فهم يبدءون طائفين به، ثم يذهبون إلى أصنامهم، وقبل أن يغادروا مكة يعاودون الطواف مستأذنين قبيل الرحيل؛ فالبيت هو البدء وهو الانتهاء.

اللهم زد بيتك تكريما ومعزة وفخرا.

اللهم أنزل بأبرهة غضبك وسخطك.

اللهم إن البيت بيتك والحرم حرمك.

اللهم لا تمكن من بيتك ظالما أو جبارا، واجعله اللهم آمنا وأمانا للناس.

أشرقت الشمس بنور ربها..

وعبد انطلب ماكث بالكعبة، لم يغادر الحجر، ولم تنم له عين، ولم يتوقف لسانه عن طلب الغوث من الله، ولم ينتبه إلى شروق الشمس. إلا حين تناهت إلى سمعه أصوات أعجمية آتية من بعد ليس بالبعيد، كانت الأصوات مختلطة بصوت صراخ ثاقب، ليس بحال صراخ إنسان أو حيوان، فهو صراخ تقشعر منه الأبدان، وتكتئب له النفوس، صراخ شؤم، ونذير خراب.

رفع عبد المطلب رأسه إلى السماء ينظر، وقد حجبت الشمس فجأة، وكادت الظلمة أن تحل في غير ميعاد، ولكن سرعان ما تبين له السبب، فلقد اندفعت أسراب من طير سود، في أفواج متلاحمة يتقدمها قائد في صدره حمرة كأنها الدم، طوفت فوق مكة.

وخر عبد انطلب ساجدا ينتحب، فلم تحتل أذناه صراخ الطيور الغاضب، ولم تحتل نفسه المرهفة ما جال بخاطره من أنه قد جاء أهل مكة الهلاك، لتقاعسهم عن حرب أبرهة دفاعا عن بيت الله. ولكن الطيور لم تبق فوق مكة، بل اتجهت إلى حيث جيش أبرهة، وبدأ عصف الرياح يشتد، ويشتد، وأصبح وقوع بلاء عظيم، أمرا لا مفر منه.

وهدأت نفس عبد المطلب، وهرول إلى باب الكعبة. يتعلق بالأستار، ويجأر مستغيثا بالله:
- اللهم اجعل غضبك على من عاداك، فنحن رب نعيش في ظل حماك.

حمل العبيد بقايا طعام الإفطار من أمام أبرهة، لكنهم تساقطوا فجأة حين وصلوا إلى باب الخيمة، لقد فاجأتهم ريح عاصف، اعتذر كبير الخدم للملك، وأسرع إلى أتباعه يضربهم بالسوط، ويستحثهم على الوقوف، والعبيد يكافحون الريح ما وسعهم، ويلتقطون الأواني من فوق الأرض في سرعة باحثين عن ملاذ يبعدهم عن غضبة الملك.

اندفع قائد الجند يعلن للملك، وهو في قمة الخوف والعجب:

- إن الفيل لا يريد أن يتحرك من مكانه يا مولاي!!

صاح أبرهة في حنق:

- اضربوه.

قال قائد الجند في كمد:

- ضربناه يا مولاي فنهض يجرى مبتعدا عن مكة.

زمر أبرهة، وهو يستعيد الوجه الهادئ للهاشمي، وصاح قائلا:

- سخنوا الرماح وأحرقوا بها جلده.

طحن قائد الجند ضروسه من الغيظ، وتمتم:
 - فعلنا به ما هو أشد وأنكى، ولكنه انكفأ على وجهه لا يريد حراكا.
 اشتد صوت الصراخ بالخارج، بعد أن كان يفد ضعيفا، استدار الملك يصعد هودجه معلنا بدء التحرك
 لاجتياح مكة، وتدمير البيت، وهو يتساءل غاضبا:
 - ما هذا الصراخ المزعج يا قائد الجند؟!
 - إنه صراخ الغيل يا مولاي.
 - ليس الغيل وحده الذى يصرخ، فأنا أسمع الجند أيضا يصرخون؟! .. وما بالك أنت أيضا تصرخ
 يا قائد الجند؟!
 لم يرد قائد الجند على مليكه، خرقت كل الأعراف، ولم يرد، فلقد اخترق حجر أسود مسوم جدار
 رأسه فقتله.
 كانت الحجارة تتساقط من السماء، ترمى بها الطير الأباييل فتخترق كل ما يقف فى طريقها، وكان
 الجند يفررون متخبطين فى كل الاتجاهات يبحثون عن ملاذ، أو سبيل إلى فرار، ولكن أين المفر من
 قضاء الله؟.
 لحظات.
 ثم أصبح الثعبان الضخم، أشلاء مبعثرة فوق رمال الصحراء كعصف مأكول.

٨

كان عبد المطلب ما زال قابعا أمام باب الكعبة ينظر إلى السماء، وقد اغتسلت شعيرات ذقنه من كثرة
 ما سال عليها من دمع، وإن كان قد غادره الروح القديم، فلقد تيقن من كون الطير لن تعود إلى قريتهم،
 وإن ظل يعجب لتواصل صراخها ولارتفاعها ثم انقراضها على الصحراء حول مكة؛ وزاد عجبه حين
 لاحظ أن أبرهة لم يفد إلى مكة، ولم يبذ على مدى البصر أثر لجنده، فهل تراه عدل عن جنونه وعاد إلى
 دياره، ولم لا: فهذا هو ذاك السكون قد عم، وما هى ذى الشمس قد عادت تشرق فى زهو من جديد.
 استدار عبد المطلب يخطو متجها حيث ربط فرسه، فركبها، ثم اندفع بها إلى حيث عسكر بالأمس
 جند الحبشى، وهو واثق من كون غوث الله قد حل؛ وكأن ريحا قد نقلته فى لحظات معدودات، فلقد
 وجد نفسه وسط مشهد مهول: لقد تحول معسكر الأمس إلى نثار مبعثرة فوق الرمال، أما الجند فلقد
 أصبحوا كأعجاز نخل خاوية، وتناثرت جثثهم على مدى اتساع الصحراء.
 أخذ ينظر مشدوها، فلو أنه تخيل انتقاما يحل بأعداء بيت الله، ما وصل به خياله مهما بلغ به
 الشطط، إلى هذه الصورة التى يراها رأى العين، وقد حلت بجند أبرهة؛ وحين استعاد نفسه من شدة
 الهول الذى رأى، صاح مكبرا مهللا، ثم عاد ينهب الأرض بفرسه نهبا، ليحمل البشرى إلى من لم
 يدركوا قوله حين قال: إن للبيت ربا يحميه.

صعد عبد المطلب ذرا جبل حراء وراح يجأر بالبشرى، والجبال تزوّب معه :
- يا أهل مكة عودوا إلى دياركم لقد أتم الله نصره، وأهلك أبرهة وجنده، وبيت الله آمن، وأنتم آمنون بأمنه.

انحدر أهل مكة من فوق الجبال والتلال يتكفأون، وقد ذبلت جفونهم وتقرحت نتيجة ليل طويل قسوه، لم تغمض لهم فيه عين، وهو ما لم تحفه صيحات الفرحة والتهليل التي أطلقوها.
وما إن عادت الدور إلى سابق عهدها، حتى سارع أهلها بهجرها ثانية، ولكن ياله من حال غير الحال؛ لقد كانوا في هجرتهم الأولى منكسرين حزاني يتعثر بهم الخطو. أما في هجرتهم الآن فهم يلغظون ويهمهمون. بل يتسابقون إلى الأرض التي عمل الله فيها القتل بجند أبرهة، وسبحان الله العلى القدير: هاهم أولاء أهل مكة الذين فروا ونأوا عن القتال، يغمون جند الغزو.
عبد الله بن عبد المطلب، هو وحده الذى لم يندفع مع الذين تدافعوا يتقاتلون على غنم ما تناثر فوق الرمال من سلاح ومال وملبس، وكان هذا أمراً معتاداً منه، فهذا حاله دائماً منذ الفداء، فهو دائم الشroud، راغب عن الدنيا ومتاعها؛ لذا راح أقرانه ينادون عليه، قائلين:
- هلم عبد الله لقتال لوليدك مغنماً.

ولكنه لم يكن منتبهاً لندائهم، فلقد كان فكره مشغولاً بسؤال لم تنتبه قريش إليه، قفز يؤرق باله:
كيف ستدفن قريش كل هذه الجثث قبل أن يدركها العفن، فتتشر الأوبئة والبلاء ليفتك بهم؟.
وتمزق فؤاد عبد الله خوفاً على من يسكن بطن زوجته، فتأوه زافراً: واطفله.
وكانما تجاوزت السماء لزفرته، فلقد زارت الريح ونفرت. وهاج البحر البعيد هياجاً عظيماً، حتى أصبح زئير انوج يصل إلى آذانهم؛ وتصاح الرعاة من فوق قمم الجبال محذرين:
- الطوفان.. الطوفان.

٩

أصاب القوم خوف شديد، حين وصل إلى آذانهم صوت النذير مختلطاً بزئير البحر، فاندفعوا يهربون متدافعين بما غنموا، لا نذرين بديارهم، بل لقد داس بعضهم بعضاً، وهم يتصايحون:
- النجاة.. النجاة.

وفي سرعة البرق خلت الصحراء من كل تلك الآلاف المتصايحة، وراى عليها صمت عظيم، صمت البشر حين تكاد أنفاسهم أن تتوقف ترقباً لهول لا يستطيعون له دفعا، وقد أحاط بهم من كل جانب؛ والسؤال المثلح لا ينفك يطرق بالعنف عقولهم:
أترأه الطوفان سيهلكهم كما أهلك قوم نوح؟!.

أسرع الرجال إلى دار الندوة. يلتمسون عبد المطلب فلم يجده؛ وعثروا به متعلقاً بباب الكعبة. يطلب رحمة الله وعفوه، تركوه حتى انتهى من دعائه ثم التفوا حوله متصايحين:

- يا عبد المطلب، لقد منعنا عن حرب أبرهة.
- وهل كانت لكم القدرة على حربه؟
- كنا سنناوشه، نكر عليه ونفر.
- ثم ماذا؟!.
- ينزل عليه غضب السماء فنتفاخر بهزيمته بين العرب.
- ومن أدراكم بأن الله كان سيرسل عليه طيرا أبابيل إذا ما كررتم عليه وفرتم؛ هل كنتم ستنالون الفخار، أو الهزيمة والعار؟!.
- ولكن رب البيت غاضب علينا لعدم حربنا أبرهة، وها هو ذا قد أرسل علينا الطوفان ليهدم بيوتنا، وليدمر قريتنا.
- يا قوم ثوبوا إلى رشدكم والتزموا دوركم، فلو كان ما سيحيق بنا الطوفان لهلكنا من لحظتنا، كما أهلك قوم نوح، وكما أهلك فرعون وجنوده.
- ولم يكن أمامهم إلا أن ينصرفوا عنه.
- فماذا تراهم فاعلين؟!.
- وماذا يملكون غير الترقب والانتظار؟.

١٠

دون نوم..
وليلة الثانية..
عاش أهل مكة يتسمعون أصوات الحراس الذين بثوهم فوق كل مرتفع، يرقبون حركة الماء لينبهوهم ليفروا إلى رؤوس الجبال قبل أن يدركهم الماء فيغرقهم.
ظلت الرياح تزجر، وعواء الموج يزداد اقترابا من آذانهم، لكن الحراس لم ينبهوا إلى إحداق الخطر بهم، فلعله الوهم يجسم مخاوفهم. ويوقع الرعب في قلوبهم.
مع إشراقة الفجر..
هدأت الرياح. ثم همدت، ولم يعد يسمع إلا صوت غثاء الغنم والإبل، ثم بدأت الديكة صياحها المعتاد مع تساقط حبات المطر.
وحلت السكينة بالنفوس.
وانهارت الأجساد المنهكة تبحت عن نوم مطمئن طال الشوق إليه، أما الرمال فقد عادت إلى صفرتها واستوائها بعد أن جرفت الأمواج في عودتها جثث الموتى من جند أبرهة لتدفن في قاع البحر، بينما استمرت السماء تبيج المطر بجا، فكأنما الصحراء تتظهر من دنس أعداء بيت الله.
وأوفى عبد المطلب بما عاهد عليه، ونحر الإبل التي استعادها من الأشرم، وتركها مباحة لكل محتاج للحومها أو لجلودها يأخذ منها ما شاء حين يشاء.

وفى شموخ، كانت الكعبة تستقبل الطائفين والعاكفين، وقد زاد قدرها وسمت منزلتها، وظل عبد المطلب لا يمل مرددا لكل من يفد من الحجيج:

- ألم أقل لكم إن للبيت ربا يحميه، وأنه لن يناله ظالم بظلم، ولا معتد بإثم.
وكانت آمنة زوجة عبد الله لا تنى تتلمس جنينها فى حب شديد، وتقول لأبيه فى يقين كامل:
- ورب البيت إن كل هذه المعجزات التى تحدث لتمهد للرؤيا التى رأيتها، ولكرامة ابننا الذى ستنير لولده قصور بصرى.

أما القسيسون والرهبان فلقد رأوا فيما حدث البشارة الأولى لقرب الميلاد العظيم لأحمد الذى هو مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل، وأضمرها نارا تأكل قلوبهم حقدا وغيرة، ولم يعلنوها، بعد أن تبين لهم أن وفوده سيكون من مكة.

وعن أبرهة فيروى التاريخ أن الطاعون قد أصابه وهو فى طريق عودته، وأن لحمه كان يتساقط نتقا، وعاش ما عاش من أيام منبوذا، حتى من خدمه الذين كانوا يفرون منه، خوفا من أن يصيبهم ما أصابه من بلاء، إلى أن انفجر قلبه، وانفردت عظامه رميما.

□□□